مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.450/442

# ثنائية الدال والمدلول بين التعليل والاعتباطية
## -كتاب الخصائص لابن جني أنموذجاً-

# The duality of signifier and signified between reasoning and arbitrariness
## - The Book of "AlKhasais » by Ibn Jinni as a model -

**مداني أحمد**
**a.madani@univ-chlef.dz**
**جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف**
**(الجزائر)**

تاريخ الاستلام: 2021/06/30 تاريخ القبول: 2021/12/03 تاريخ النشر: 2022/12/02

**ملخص:**

هدف البحث هو دراسة مسألة لسانية، أخذت من جهود علماء اللسان قديماً وحديثاً قسطاً كبيراً من أبحاثهم، ألا وهي مسألة علاقة الأصوات -باعتبارها دوالا وألفاظاً- بالمعاني باعتبارها مدلولات، فقد رجّح أكثر اللغويين في اللسانيات العربية القديمة، القول بالصلة الطبيعية بين الدّال ومدلوله، وذلك لما رأوا في اللغة العربية من مميزات قلّما تجتمع لغيرها من اللّغات، فدفعهم هذا الاعتقاد إلى الاعتزاز بها، ومن أجل هذا أخذوا يلتمسون معاني الأصوات المجرّدة، ومحاولة تأويلها وإيجاد مناسبة معنوية يعلّلون بها ارتباط وتوافق أصوات الكلمات بمعانيها، فكان رأيهم هذا بمثابة نظرية تقوم على تعليل ارتباط الدّال بمدلوله، وخير من مثل هذا الاتجاه هو ابن جني في كتابه "الخصائص"، وإلى جانب هذا المنظور يوجد فريق قال بعدم مناسبة الألفاظ وأصواتها للمعاني المستفادة، وأن العلاقة بينهما اعتباطية، لا يمكن أن تدخل تحت برهنة أو تعليل، أو حُجة أو دليل.

**الكلمات المفتاحية:**

الدال،المدلول، الأصوات، الألفاظ، المعاني، اعتباطية، تعليل، الصلة الطبيعية، الخصائص.

***Abstract:***

*The aim of the research is to study a linguistic issue, which took from the efforts of linguists, ancient and modern, a large part of their research, which is the issue of the relationship of sounds as functions and words, with meanings as connotations. Most linguists in ancient Arabic linguistics preferred to say the natural link between the signifier and its signifier, because They saw in the Arabic language features that rarely meet with other languages, so this belief prompted them to cherish it, and for this they began to seek the meanings of abstract sounds, and to try to interpret them and to find a moral occasion by which they justify the association and compatibility of the sounds of words with their meanings, so their opinion was a theory based on the explanation of the link The signifier is indicative, and the best of such a trend is Ibn Jinni in his book "Al-Khassas." In addition to this perspective, there is a group that said that the words and their sounds are not suitable for the learned meanings, and that the relationship between them is arbitrary, and cannot be included under proof, reasoning, argument or evidence.*

***Key words:***

*Significant signifier, sounds, utterances, meanings, arbitrariness, reasoning, natural connection, Alkhasais.*

**مقدّمة:**

إن معرفة دلالة الألفاظ من ألزم الأمور في فهم اللغة، سواء أكانت لغة العلم أم الأدب أم التخاطب اليومي، وهذا الفهم للغة يؤدي بالمتكلم إلى تحقيق الأهداف والوظائف التي من أجلها وضعت اللغة، تلك اللغة التي حدّدها ابن جني بقوله: "حدّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم".[1] وهذا التعريف يضع اللّغة تقوم على مستويين هما مستوى الأصوات أي الحروف والألفاظ، ثم مستوى المعاني باعتبارها مدلولات للدلالة التي هي الغاية من اللغة، وذلك من خلال قوله: "يعبر بها كل قوم"، فكلمة قوم تشير إلى أن الجماعة اللغوية قد تعارفت على نظام معين ذي دلالة معيّنة على أفكار معيّنة، وفق ضرورة اجتماعية، يمكن أن يطلق عليها صفة العقد الاجتماعي التواضعي الاصطلاحي، الملزم لأفراده من حيث إنه ذو قوة لسانية تشمل الجميع، وبهذا الإلزام لا يستطيع أي عضو من ذلك المجتمع الخروج أو التّحلل بالدّوال (الألفاظ) عن المدلولات (المعاني) المعروفة، وبذلك يتبين أنّ أفراد هذا المجتمع اللساني أو ذاك، عند اصطلاحهم وتواضعهم على طائفة معينة من الألفاظ (الدوال) لأجل استعمالها وإطلاقها على مدلولات (معان ومسميات)، يكونون على اتجاهين، إما أنهم توصّلوا إلى ذلك بأنهم أدركوا أن هناك صلة ما بين اللفظ (الصوت) ومعناه، وبالتالي صار اتفاقهم معلّلاً، ومعنى ذلك أن تواطأهم ذلك كان معلّلا، وإما أن اتفاقهم ذاك، كان اعتباطياً، بحيث لا توجد لتلك العلاقة الطبيعية بين اللّفظ ومعناه علة أو سبب.

استناداً إلى هذا السياق، يمكن طرح الإشكال الآتي:

ما موقف اللسانيات العربية من العلاقة بين الدال ومدلوله؟ وما مذهب ابن جني في تفسير لهذه العلاقة من خلال كتابه "الخصائص"؟

**1- نبذة حول صلة الأصوات بالمدلولات في المجتمعات اللسانية:**

لكي تتبين العلاقة بين اللفظ باعتباره صوتاً ومدلوله باعتباره معنى، ينبغي أن نعرج في هذا البحث على أبرز مقولات العلماء في المجتمعات اللسانية، لاسيما المجتمع اليوناني والمجتمع الهندي، إذ أنهم يعدون أهم من اهتم بهذا الموضوع قبل العلماء العرب، وأن لغاتهم التي كانوا يتكلمون بها كانت على قدر كبير من الأهمية، فاليونان كانت لغتهم اليونانية لغةالعلم والفن والأدب لمدة طويلة، كما أن اللغة السنسكريتية لغة الهنود القديمة، كانت إحدى العوامل التي أثرت حركة الدرس اللساني الحديث بعد اكتشاف أنظمتها على يد علماء اللسانيات في أوروبا.

**1-1- في المجتمع اليوناني:**

اهتم علماء الفلسفة في المجتمع اليوناني بمسألة ارتباط الأصوات بالمدلولات، حيث لاحظوا أن الأصوات توحي بمعان معينة،لذا فإن فكرة إيحاء الأصوات مفردة أو مركبة لمدلولات معينة، هي موضوع بحث قديم لفت أنظار الفلاسفة اليونان[2]، حيث نجد أفلاطون (ت 375 ق.مPlaton) وأرسطو (ت 322 ق م Aristote)، ومن جاء بعدهم من السفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد، قد بحثوا في هذه الصلة، فذكروا أنها صلة طبيعية، تثير ذهن السامع أو المتكلم مباشرة بمدلولات (معاني) خاصة ، مع أنهم نبّهوا أن هذه الصلة ربما تزول لتقادم الزمن أو تغير الأصوات بسبب عامل التطور، لكن كان يشكل عليهم شيء آخر، وهو أنهم لم يتمكنوا من إثبات هذه الصلة بصفة جازمة ومُطردة في بعض الألفاظ، ولهذا لم يكن لهم بدّ إلا أن يفترضوا أن تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة سهلة التفسير في بدء نشأتها ثم تطورت الألفاظ ، ولم يعد من اليسير أن نتبين بوضوح تلك الصلة، أو نجد لها تعليلاً أو تفسيراً"[3]، لكن هذا الرأي لم يكن محل اتفاق بين فلاسفة اليونان، إذ نجد فيلسوفاً مثل (ديموقريطس ت 370 ق.م) (Démocrite)، وهو أحد فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد، لا يقرّ بهذا الاتجاه ،ويعلن أن اللفظ ومدلوله بينهما علاقة، نشأت بواسطة الاكتساب والاتفاق بين الأفراد الذين يستعملونها".[4]، كما أن أرسطو لا يتبنى فكرة شيخه أفلاطون، إذ نجده يقول بأن الصلة تخضع للعرف والاصطلاح الذي يتواضع الناس عليها في مجتمع ما، أي ما تثيره هذه الألفاظ في الذهن، هو ما تعارف وتواضع عليه الناس في المجتمع أو ذاك".

**1-2- في المجتمع الهندي:**

أثارت قضية صلة الأصوات بالمعاني التفكير اللغوي عند الهنود، وجذبت اهتمامهم "ربما قبل أن يجذب اهتمام اليونانيين، وقد بدأ جمهور كبير من فلاسفتهم المناقشة، بأن تحدثوا عن ثلاثة أقسام مختلفة في جوهرها: هي ما يسمى بالكلمة (Word)، والإدراك (Cognition)، والمحتوى (Content)".[6]

وقد عرف المجتمع الهندي فئة من الفلاسفة اللغويين الهنود تحمل اسم (Vaisesihas)، ترى أن هناك نوعاً من العلاقة الضرورية، هي بمثابة علاقة النار بالدخان، وفكرتهم هي أن أي كلمة ما، لها نوع من الصلة بين الفكرة المحدّدة ومدلولها، محتجين بأنه إن لم تكن هناك علاقة بينهما، فما جدوى وما السبب الذي أحدث الترابط بين تلك الفكرة ومعناها؟ لكن هذا الاتجاه قوبل بالرفض من قبل طائفة فلسفية لغوية أخرى مشهورة باسم (Naiyaykes)، لا تعترف بوجود هذه العلاقة الطبيعية بين الأفكار ومعانيها، إذ يرون أن الصلة ما هي إلا مجرّد علاقة مرتجلة حادثة، ومع أن رأيهم هذا جدير بالاحترام من الناحية العلمية، إلا أنهم ربطوه بالجانب الميتافيزيقي أي "أن هذه العلاقة هي صنع إلهي، بينما يرى الآخرون أنها عملية اجتماعية اصطلاحية".[7] وبعد هذه المسحة التاريخية لمسألة صلة الأصوات والأفكار بمدلولاتها عند اليونان والهنود، وما كان فيها من تضارب للآراء، فهل تعترف اللسانيات الحديثة بما أفرزه الفكر الفلسفي اللغوي عند هاتين الأمتين وماأثير حول هذه القضية اللسانية؟

**2- علاقة الدال بمدلوله في الفكر اللساني الحديث:**

تباينت أحكام اللغويين في الفكر اللساني الحديث حول موضوع التحام الألفاظ بمعانيها، بين من اعترف بوجودها أو إعطائها العديد من العلل، وبين من قال بنفي هذه الصلة، فمن الفريق الأول اللساني همبولت(Humboldt 1835) الذي يرى "أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء ،بوساطة ألفاظ أثرها في الآذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان".[8] لكنه بعد تعمّقه في البحث وجد أنَّ تلك الصلة يكتنفها بعض الغموض، لذلك "ادعى أن الصلة بين أصوات الكلمات ومدلولاتها قد أصابها بعض التطور، واختفت مع توالي الأيام".[9] ويؤيد هذا المنحى اللساني "جسبيرسن ت 1943" (Jespersen)، حيث يرى أيضاً وجود مناسبة بين الصوت واللفظ، وأن هذه الظاهرة لا تكاد تطرد في لغة من اللغات، وأن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مرّ الأيام، في حين أن كلمات أخرى تكتسبها وتصبح فيها واضحة بعد أن كانت لا تلحظ فيها"[10]، يأتي بعد ذلك رأي "دي سوسير" (ت1913(Désaussure)، الذي اتخذ موقف الرفض من وجود العلاقة بين الألفاظ ودلالاتها، إذ يقول بأنها اعتباطية لا يمكن أن تخضع لتعليل أو منطق، فمثلاً لفظ "وردة" لا يوجد علاقة بينه وبين تلك الزهرة المعيّنة، وإنما العرف الاجتماعي أو الاصطلاح اللساني في أفراد المجتمع جرى على ربط هذا اللفظ بمدلوله، وإلى هذا يذهب اللساني "ستيفنأولمن"(ت 1976 (Stephen Ullmann) الذي ينفي كينونة العلاقة الطبيعية بين الكلمة ومعناها.[11]

يظهر أن هذه المسألة لاقت اهتمامًا من قبل علم اللغة الحديث، واستقر الرأي عند المشتغلين باللسانيات الحديثة على اعتباطية العلاقة بين الألفاظ ومدلولاتها، لاسيما بعد انتشار أفكار ""دي سوسير" اللسانية،حتى صار الاعتقاد عند بعض الدارسين أن رأى ""دي سوسير" هو من المسلمات، وتنوسيت معه جهود ابن جني (ت 392 م) في هذه المسألة التي عرفت من خلال كتابه "الخصائص" منذ القرن الرابع الهجري، وعليه فكيف تناول ابن جني هذه القضية؟

**4-الدال والمدلول عند ابن جني:**

لم تكن نظرة ابن جني إلى مسألة ارتباط الألفاظ بمدلولاتها بدعاً من الأمر، فقد كان سالكاً سبيل غيره من العلماء الذين سبقوه، ومعتنقاً لمذهبهم في هذه القضية، إذ كانوا يقولون بالصلة الطبيعية المتلازمة بين الدال ومدلوله، ومن أهم العلماء الذين تعدّ أبحاثهم بأكورة البحوث في المسألة هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 174 ه)، بدليل أنه ينقل أقوال الخليل في كتابه الخصائص قائلاً: "واعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته، قال الخليل: كأنهم (العرب) توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً، فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصراً."[12]، فهذا النص يبين أن علماءنا انتبهوا إلى هذه المسألة منذ القرن الثاني الهجري بدليل نصّ الخليل هذا، حين أدرك "وجود صلة بين صوت الجندب والفعل الذي يدلّ عليه صرّ، وبسبب تشابه صوت البازي وصوت الجندب، مع وجود اختلاف في الكيفية التي جاء الفعل الذي يصف البازي

مضعفاً: صرصر"[13]، ويوافق الخليل تلميذه سيبويه (ت 180 ه)، حيث ترك لنا نصًّا واضحاً في مؤلفه الموسوم "بالكتاب"، حيث يقول: "ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك، النزوان والنقزان والقفزان، وانما هذه أشياء في زعزعة البدن، واهتزازه في ارتفاع، ومثله العسلان والرتكان... ومثله هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك، ومنه الغثيان لأنه تجيش نفسه وتثور، ومثله الخطران واللمعان، لأن هذا اضطراب وتحرّك، ومثل ذلك اللّهبان والوهجان"[14]، وعلى رأي سيبويه فالمصادر التي على وزن فعلان ، دالة على الحركة المصاحبة للحدث، ولم يقف هذا الاجتهاد عند سيبويه فقط، بل إن المعتزلة في القرن الثالث الهجري تأولوا كل ظاهرة لغوية، بتعبير الفعل ، فقد ذكر السيوطي (ت 911 هـ) أن عباد بن سليمان الصيمري، المعتزلي يرى أن بين الألفاظ والمعاني صلة لم توضع اعتباطاً، وفي ذلك يقول: "إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية، حاملة للواضع على أن يضع، وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين من غير مرجّح".[15] وإلى هذا الرأي يميل ابن دريد (ت 321هـ -)، حين يعلن عن العلاقة بين اللفظ ومعناه، عندما فسّر علّة تسمية العرب لأبنائهم، بناءً على هذه العلاقة الطبيعية قائلا: "واعلم أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها، فمنها ما سُمّي بما غلظ نحو أسد ، ليث، وفراس، وذئب... ومنها ما سمّي بما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطنه مثل: حجر وحُجير، وصخر وفِهر..."[16]

لكن كل هؤلاء العلماء وغيرهم ،كانت دراستهم للمسألة دراسة عارضة، إلا ما كان من أمر ابن جني (ت 392 ه)، الذي فصل فيها القول وعقد لها أبواباً في كتابه القيّم "الخصائص".

**4-الدال والمدلول عند ابن جني من خلال كتابه "الخصائص":**

أعلن ابن جني في "الخصائص" أن مذهبه يعزّز من قال بارتباط الدال بمدلوله وفق صلة طبيعية، حيث قال: "فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبَّر بها عنها..."[17]، وإذا استقرى الباحث هذه المسألة في كتاب "الخصائص" يجدها مفصّلة في أربعة أبواب هي:

**4-1- تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني:**

في هذا الباب، يبرهن ابن جني كيف يربط بين كلمتين مطبقاً هذا المبدأ اللساني، وضارباً لنا مثالاً بين كلمة المسك والصوار التي تعني الرائحة الطيبة والقليل من المسك، حيث يرى أن كلا منهما يجذب حاسة من يشمه، أي إن المسك – كما يرى – إنما سمّي كذلك ، لكونه يمسك حاسة الشم ويجتذبها، ويقيم ابن جني برهاناً على رأيه هذا، بأن كلمة المسك بالفتح ومعناها الجلد، لكون الجلد يمسك ما تحته من جسم.[18]

من هذا القول،يظهر أن ابن جني يرى أن معاني الألفاظ، إنما ترتبط أصواتها بصورة تعليلية، حيث مسميات الأشياء لابد وأن بينها وبين أسمائها رابطا يصح أن يطلق عليه علاقة السبب بالمسبب.

**4-2- تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني:**

يعقد ابن جني هذا الباب من كتابه" الخصائص"، ليدلّل على هذا المذهب اللساني الذي يعتنقه، بمسألة لسانية في غاية الأهمية، وهي تقارب الحروف أو الأصوات أوالألفاظ إنما هو ناتج عن تقارب المعاني، ويزيد ذلك توضيحاً بأنه إن اشتركت الكلمتان في بعض الحروف فإن ذلك يعتبر عاملاً كافياً للاشتراك في الدلالة والمعنى، وضرب مثالاً على ذلك بكلمتين هما: الهزّ والأزّ، يوجد بينهما تقارب في المعنى بنسبة ما، كما أن لهما اشتراكا في الأصوات أي حروف اللفظ، يقول: "من ذلك قول الله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}[19] أي تزعجهم وتقلقهم[20]، فهذا في معنى يهزهم هزاً، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ، لأنك قد تهز ما لا حركة له، كالجذع وساق الشجرة، ونحو ذلك".[21]

وقد علّق إبراهيم نجا (1981م) في كتابه فقه اللغة العربية، على هذا الإبداع الذي انماز به ابن جني بأن المعنى العام في "أزّ وهزّ"، متحقق وهو التحريك، وإن اختلفت الحركة في كل منهما، فأزّ هو تحريك ماله حركة، {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} وهو تحريك ما لا حركة له. قال تعالى: {وهُزي إليك بجذع النخلة}[22]، لذا خصّ الأول بالهمزة والثانية بالهاء.

ويرى ابن جني أيضاً أن الكلمة وأختها، إذا اشتركتا في الحروف الثلاثة الأولى يؤدي إلى الاشتراك أيضاً في المعنى، وذلك يظهر في كلمات مثل "دَمِث" و "دَمْثَر"، فالأول من دَمِث المكان كفرح، أي سهل ولان ، ومنه دماثة الخلق أي سهولته.[23] والثانية معناها السهل من الأرض والجمل الكثير اللّحم.[24]

كما أن ابن جني عقد أيضاً موازنة بين كلمات رباعية وخماسية الحروف مثل كلمتي "دردَبتُ"وكلمة "دَرْدَبيس"، ورأى أنهما يشتركان في المعنى[25] ، فكلمة "دردبيس" تعني الداهية، والشيخ والعجوز الفانية.[26]

يقول إبراهيم أنيس معلقاً على ما ذهب إليه ابن جني "ولسنا ندري أي هذه المعاني يشترك مع ما تذكره المعاجم عن الكلمة الأخرى، إذ تقول: وامرأة دَرْدَب تذهب وتجيئ بالليل، وفي المثل دردب لما عضّه الثقاف[27] ، "أي خضع وذلّ"[28] ، ويواصل ابن جني تفصيل هذا الباب أكثر، حيث يذهب إلى أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على الحالات التي تحذف فيها الأصوات في مخارجها أو صفاتها، وفي هذا يقول "وقالوا الغمر، كما قالوا الخَتْل، والمعنيان متقاربان واللفظان متراسلان، فذلك من (غ د ر) وهذا من (خ ت ل) فالغين أخت الحاء، والدال أخت التاء، والراء أخت اللّام"[29]. ويعطي مثالاً آخر أيضاً "وقالوا فلان حلس بيته إذا لازمه، وقالوا: أرز إلى الشيء إذا اجتمع نحوه، وتقبض إليه، ومنه إن الإسلام ليأزر إلى المدينة"[30]، وقال :

بآزرة الفقارة لم يخُنها قِطاف في الرِّكاب ولا خلاء".[31]

فذلك من (ح ل س) وهذا (أزر) فالهاء أخت الهمزة، واللام أخت الراء، والسّين أخت الزّاي"[32]، وقالوا: أفل كما قالوا غبر، لأن أفل غاب، والغابر غائب أيضاً، فذاك من (أ ف ل) وهذا من (غ ب ر) فالهمزة أخت العين، والفاء أخت الباء، واللام أخت الرّاء.[33]

**3-4 الاشتقاق الأكبر:**

في هذا الباب يسوق ابن جني حديثه إلى ظاهرة لغوية سمّاها الاشتقاق الأكبر، حيث فسّره بأن اللفظ مهما قلّبه المتكلم فسيجده يشتمل على معنى عام مشترك، ويدلّل على ذلك بمثال هو مادة (ق س و)، يقول: "ومن ذلك تراكيب (ق س و)، و (و ق س) (و س ق) وأهمل (س و ق)، وجميع ذلك إلى القوة والاجتماع، منها القسوة، وهي شدة القلب واجتماعه ألا ترى إلى قوله: ياليتشعري والمثنى لا تنفعل أغدَوْنَ يوماً وأمري مُجْمَعُ

أي قويّ مجتمع، ومنها الوسق بشدتها، واجتماع طرفيها، ومنها الوقس لابتداء الحرب، وذلك لأنه يجمع الجلد ويقحله، ومنها الوسق للحمل، وذلك لاجتماعه وشدته، ومنه استوسق الأمر، أي اجتمع "والليل وما وسق"[34] أي جمع، ومنها السوق ، وذلك لأنه استحداث وجمع للمسوق بعضه إلى بعض، وعليه قال:

مستوسقات لو يجدنسائقاً[35] ، فهذا كقولك: مجتمعات لو يجدن جامعاً.

فإن شذ شيء من شعب هذه الأصول عن عقده ظاهراً، رُدّ بالتأويل إليه، وعطف بالملاطفة عليه"[36] ،وعلى الرغم من قوة ما ذهب إليه ابن جني في هذا الباب، إلا أنه نهج منهج العالم المتثبت المتحفظ، على ما أورده من طرح نظري وشواهد تطبيقية، إذ صرّح بعد ذلكبأن منظوره هذا غير مُطرد في تفسير العلاقة بين الدوال (الألفاظ) ومدلولاتها (معانيها)، وفي ذلك يقول: "واعلم أن لا ندّعي أن هذا مستمر في جميع اللغة".[37]

والجدير بالذكر أن ما سمّاه ابن جني بالاشتقاق الأكبر، يميل كثير من علماء اللغة الحديث إلى وسمه بالاشتقاق الكبير، وقد بالغ عدد معتبر منهم حيث اعتبروه مطرداً في جميع معظم مواد اللّغة، والحق هو ما ذهب إليه ابن جني ، أن ذلك يجري على معظم المواد، لكن تبقى بعض المواد الشاذّة، ممّا يجعل أي باحث في هذا الموضوع ، يدرك أن محاولة وصفه بالشمولية أو العمومية والاطراد ضرب من التعسف أو المكابرة، لكونه ينتج عنه العدول بالألفاظ عن معانيها الأصلية، والتمسك بأطروحات داحضة، أقل مساوئها أنها تحمّل اللغة وأصواتها وألفاظها ما لا تحتمل.

**4-4- إمساس الألفاظ أشباه المعاني:**

يريد بهذا الباب أن الألفاظ وأصواتها توضع على صورة مناسبة لمعانيها، وهو بذلك يشير إلى أن المعاني متقاربة نتيجة لتقارب جرس الأصوات أي الحروف.

ومن المعروف لدى الباحثين المتخصصين أن ابن جنّي هو وارث علم الخليل وتلميذه سيبويه، وأن كتابه "الخصائص" ما هو إلا عصارة علمهما، حيث نقل علم الرجلين، وأضاف إليه معرفته، وخبرته الطويلة باللسان العربي،

حيث أنتج للسانيات العربية هذه الآراء التي هي بمثابة نظريات لسانية كانت ولا تزال تستحق التأمل، لمن يريد التأسيس لعلم اللغة العربية الحديث، ومن بين الأشياء التي استنبطها من ملاحظة سيبويه في صيغة "الفعلان"، الدالة على الحركة، قوله: "ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمت ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعّفة تأتي للتكرير، نحو الزعزعة، والقلقلة، والصعصعة... ووجدت أيضاً "الفعلى" في المصادر والصفات، إنما تأتي المسرعة، نحو البشكى، والجَمَزَى، والوَلَقَى... فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرّر – أعني باب القلقلة – والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت للحركات فيها".[38]، كما يواصل ابن جني بحثه حول التناسب الحادث بين أصوات الحروف وبين الأفعال المتحدث بها، يقول: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع... وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر به عنها، فيعدلونها ويحتذونها عليها... من ذلك قولهم: خَصِمَ، وقضمَ، فالخصم لأكل الرّطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوها من المأكول الرطب، والقضم للصّلب اليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك... وفي الخير قد يدرك الخصم بالقضم، أي قد يدرك الرجاء بالشدّة، واللّين بالشطف... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث".[39]، ومنهنا فإن ابن جني من خلال هذا النص يرى أن هناك صلة وثيقة بين القاف الشديدة والصوت الناشئ عن أكل اليابس، كما يرى مناسبة واضحة بين الخاء الرخوة والصوت الناشئ عن أكل الرطب".[40] ويزيد المسألة وضوحاً بضرب أمثلة أخرى كقوله: "ومن ذلك قولهم النّضح للماء ونحوه، والنّضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه وتعالى: {فيهما عينان نضاختان}[41]، فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه".[42] ولا يكتفي ابن جنّي بضرب الأمثلة على دلالة الحرف الواحد، بل أمثلة على دلالة الحروف مجتمعة، إذا ما قرنت مع أخواتها من أحرف أخرى، مثل حرف الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون، إذ أنها إذا اجتمعت مع صوت الفاء في نسق واحد، فإنها تنبئ بدلالات الوهن والضّعف وما يشبهها نحو "الدّالف للشيخ الضعيف... والنطف للعيب وهو الضّعف، والدنف المريض... ومنه الفرد، لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك أميل، قال رسول الله -ﷺ-: "المرء كثير بأخيه"،... ومنه الفرات لأنه الماء العذب، وإذا عذب الشيء ميل عليه، ونيل منه..."[43].

إن مجمل ما يمكن أن يقوله الباحث أمام هذا الزّخم الكثيف للتحليلات الصّوتية، أن ابن جني بآرائه اللسانية الإبداعية أنموذج لتلك الجهود التراثية التي أشبعت المستوى الصوتي بحثا، منذ وقت مبكر، وأثرت في طائفة كثيرة من علماء العربية حديثاً، ممّن تبنوا أفكاره واعتنقوا مذهبه، نذكر منهم أحمد فارس الشدياق (ت 1888) الذي يقول في كتابه "الساق على الساق": "إن كل حرف يختص بمعنى من المعانيدون غيره وهو من أسرار اللغة العربية التي قلّ من تنبه لها، وقد وضعت لهذا كتاباً مخصوصاً سمّيته منتهى العجب في خصائص لغة العرب"[44]، وممّن انتهج هذا المنهج صبحي الصالح الذي انتصر لرأي ابن جني واعتبره من الفتوحات المبينة في اللسانيات وفقه اللغة، ومن ذلك قوله :"فأهل اللغة بوجه عام والعربية بوجه خاص كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني... فكان لابد لنا من الاقتناع بهذه الظاهرة اللغوية التي تعدّ فتحاً مبيناً في فقه اللغة عامة".[45] كما تبنى هذه النظرية مُحَمَّد المبارك عند دراسته لدلالة الألفاظ والحروف، حيث ساقه اجتهاده إلى أن "للحرف في اللغة العربي إيحاءً خاصاً، فهو إذا لم يكن يدلّ دلالة قاطعة على المعنى، يدلّ دلالة اتجاه وإيحاء، ويثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى، ويوجه إليه ويوحي به".[46]

**خاتمة:**

صفوة القول، إن علاقة الدال بمدلوله عند ابن جني تقوم على علاقة معلّلة مفادها المناسبة الطبيعية بين الصوت ومعناه، كما أنه من أكثر العلماء الذين تنبهوا لجزئيات الكلمة وهي أحرفها، وما تحتوي عليه من أصوات تدلّ دلالة خفية، لا يمكن أن يهتدي إليها، إلا من كان له علم واسع وذوق عال بأسرار العربية، كما أن آراءه التي أسلفنا الحديث عنها في هذا البحث، تكاد تصير نظرية لسانية صوتية، تقوم على البعد الدّلالي للحرف، سواء أكان هذا الحرف واحداً أم متعدداً، كما تقوم على الشروع في التحليل اللساني بأصغر وحدة دالة وهو الحرف، وهو ممّا يعتمده علماء علم اللغة الحديث، حيث يرون أن التحليل يبدأ من الحرف ثم الكلمة ثم الجملة، واهتمامه البالغ بالصوت أو الحرف، وما يحدثه من تغيّرات دلالية، أدّى إلى إدراكه لنظرية هي عماد البحث اللساني الحديث، وهي نظرية "الفونيم"(Phonème) التي يمكن أن يقال عنها وعن أفكار ابن جنّي أنهما يخرجان من مشكاة واحدة.

ممّا سبق، نستطيع أن نخلص إلى النتائج الآتية:

**نتائج البحث:**

1- تبين من خلال أقوال ابن جني وأفكاره في بسطه للكلام حول الدوال (الألفاظ) والمدلولات (المعاني)، أن العلاقة بين الدال ومدلوله معلّلة بوجود صلة طبيعية منطقية بينهما.

2- منظور ابن جني لعلاقة الدال بمدلوله موافق لرؤية بعض اللسانيين الأوروبيين الذين قالوا بمناسبة الألفاظ لمعانيها، أمثال "همبولت" و "جسبرسن" ، ومخالف في الوقت نفسه لآراء أخرى في اللسانيات الحديثة، فمن الأوروبيين نجد "دي سوسير" و"ستيفن أولمان" ومن اللسانيين العرب نجد "تمام حسان"[47] وعبده الراجحي[48] .

3- طريقة ابن جني حريّة بأن تكون منهجاً للتطبيق على النصوص الأدبية، لما يوجد فيها من التوسع والتأمل في دلالات الكلمات التي تبدو في ظاهر الأمر ذات معان مغلقة.

4- آراء ابن جني لفتت الانتباه غلى ما تفرزه الأصوات والحروف من تأثير على مدلولات الألفاظ، وبالتالي أكّدت على وجوب الاعتناء أكثر بالمستوى الصوتي، لاسيما القسم الذي يعتني بوظيفة الصوت الدلالية، وهو ما أطلق عليه في اللسانيات الحديثة بالفنولوجيا (Phonologie).

5- إن جهود ابن جني أول محاولة ممنهجة علمية موضوعية، حاولت استنطاق الحرف بما يحمله من دلالات خفية تقف خلف ظواهر الألفاظ، ووضعت البحث في المسائل التي أشار إليها من تبنّي هذه الرؤية أمثال ابن فارس والبيروني والرازي وابن قيم الجوزية.

6- إن تطبيق منهج ابن جني في الاعتماد على إيجاد الصلة الطبيعية من الحروف والمعاني، يساعد الدارس على الوصول إلى الدلالة الإيحائية، ومن ثم يستطيع تذوق النصوص والولوج إلى أعماقها، فقد يجد مثلاً معاني وأسراراً في الشعر القديم لا يجدها في قصيدة الشعر المعاصر.

7- تدلّ نظرة ابن جني على أن للغة العربية نقص الخصائص والمميّزات تنفرد بها عن سائر اللغات، مما يؤكّد أن نظرية ابن جني تليق باللسان العربي، وربما لا تنطبق على الألسن الأخرى.

أخيراً وعلى ضوء النتائج المتوصل إليها، ينبغي أن نشير إلى بعض الاقتراحات، وذلك تتمة للبحث، ومن تلك الاقتراحات.

أ- ينبغي أن يضع الباحث اللساني، أنه على الرغم من أنَّ الدرس اللساني الحديث يقول باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، إلا أنه لا يمكن تجاهل أو إغفال رأي من قال بوجود صلة طبيعية بين الألفاظ والمعاني.

ب- على الدارس في مباحث اللسانيات أن يعرف أن اللغة العربية لها من الخصائص، ما يجعلها تتميز عن سائر اللغات، ومن ذلك أنه أصواتها وأجراس حروفها لها إيحاءات دلالية، وتصور دلالي، ممَّا جعل علماء العربية قديماً يقولون بوجود تعليل صلة أصوات الكلمة العربية بمعناها.

ت- عدم الاقتصار على ما أفرزته اللسانيات الحديثة في هذا الموضوع، ولأن ذلك يجعل إلمام الباحث اللغويّ أحادي النظرة، وله قصور في الحكم والاستنتاج، لذا يجب دائماً مراجعة دواوين الدّرس اللغوي في التراث، وإعادة قراءتها من جديد.

ث- يجب على الطالب المتخصص في علم اللغة، أن يعيد النظر والتأمل في كتاب "الخصائص"، لأن في هذا الكتاب مسائل لسانية لا تزال مغلقة،ذات نصوص مفتوحة، تحتمل أوجها عديدة للقراءات.

ج- يمكن تدريس كتاب "الخصائص" لابن جني في ضمن المقررات الدراسية الجامعية، لأن هذا الكتاب يمثل اللسانيات العربية خيرَ تمثيل، كما أنه جمع علم الأولين أمثال الخليل وسيبويه وغيرهما.

**المصادر والمراجع:**

[1] - ابن جني، الخصائص، ج1، تحقيق مُحَمَّد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، 2006، ص 33.

[2] - ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو، ط4، القاهرة، 1980، ص 63.

[3] - المرجع نفسه، ص 63/62.

[4] - ينظر: عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء للنشر والتوزيع، دط، عمان، الأردن، 1985، ص 205.
[5] - مُحَمَّد علي عبد الكريم الرديني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، دط، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص 197.
[6] - أحمد مختار عمر، النحت اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، دار المعارف، دط، مصر، 1971، ص 101.
[7] - المرجع نفسه، ص 102، 103.
[8] - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 68.
[9] - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلومصرية، ط6، القاهرة، 1979، ص 144.
[10] - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 68.
[11] - ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشير، دط، القاهرة، 1962، ص84.
[12] - ابن جني، الخصائص، ج2، ص 152.
[13] - عبد القادر أبو شريفة، علم الدلالة والمعجم العربي، دار الفكر، ط1، عمان، 1989، ص 22.
[14] -سيبويه، الكتاب، ج2، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988، ص 218.
[15] - السّيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دط، القاهرة، 1958، ص 47.
[16] - ابن دريد، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الرسالة، دط، القاهرة، 1958، ص 05.
[17] - ابن جني، الخصائص، ج1، ص 65.
[18] - ينظر: ابن جني، الخصائص، ج2، 113.
[19] - سورة مريم، الآية 83.
[20] - ينظر: الفراء، معاني القرآن، ج2، تحقيق مُحَمَّد علي النجار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1955، ص 138.
[21] - ابن جني، الخصائص، ج2، ص 146.
[22] - ينظر: إبراهيم نجا، فقه اللغة العربية، ج1، دار الحديث، القاهرة، 2008.
[23] - ينظر: الجوهري، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دط، القاهرة، 1977، ص 282.
[24] - ينظر: الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ج2، مطبعة بولاق، دط، مصر، 1301ه، ص 30.
[25] - ابن جني، الخصائص، ج2، ص 146.
[26] - الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ج2، ص 214.
[27] - ينظر: الجوهري، الصحاح، ج1، ص 125.
[28] - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 66.
[29] - ابن جني، الخصائص، ج2، ص 150.
[30] - ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، ج1،دار ابن كثير، د ط،بيروت، رقم الحديث 1876، ص 214.
[31] - ينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب، ط1، بيروت، 1363ه، ص 63.
[32] - "آرزة الفقارة" أي قوية، وهو وصف الناقة، وذلك أن قفارها آزر متداخل مجتمع، وذلك من قوتها، "لم بختها" لم ينقصها، "القطاف" مقاربة الخطو والخلاء في الإبل كالحران في النَّواب، ينظر: هامش الخصائص، ج2، ص 151.
[33] - ابن جني، الخصائص، ج2، 152/151.
[34] - المصدر نفسه، ج2، ص 152.
[35] - سورة الاشتقاق، الآية 17.
[36] - ينظر: ديوان العجاج، تحقيق عزة حسن، دار الشروق، د ط، بيروت، 1995، ص84.
[37] - ابن جني، الخصائص، ج2، ص 136-137.
[38] - المصدر نفسه، ج2، ص 138.
[39] - المصدر نفسه، ج2، ص 153.

[40] - المصدر نفسه، ج2، ص 157-158.
[41] - ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 66.
[42] - سورة الرحمن، الآية 66.
[43] - الخصائص، ج2، ص 185.
[44] - المصدر نفسه، ج2، ص 166-167.
[45] - عماد الصالح، اعترافات الشدياق في كتاب الساق على الساق، دط، بيروت، 1982، دار الرائد العربي، ص 15.
[46] - صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ط3، بيروت 1960، ص 144.
[47] - مُحَمَّد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر اللبناني، ط5، بيروت، 1972، ص 24.
[48] - ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلوالمصرية، دط، القاهرة، 1955، ص 244.